المفارقات الزمنية
في رواية اعترافات أسكرام "لعز الدين ميهوبي"

أ. فاطمة الزهراء مرسلي

في مفهوم الزمن الروائي:

يعد الزمن من أهم العناصر الحكائية الفاعلة التي يتم توظيفها داخل البناء الروائي، كواجهة نرى من خلالها صراع الإنسان مع نفسه ومع مجتمعه، فهو بمنزلة المجداف الذي تتحرك وفق انحناءاته معطيات الحياة الإنسانية على أرضية الفن الروائي، ففي ضوئه تتعاقب وتتراتب مادة القص بمختلف أشكالها، بوصفه بنية قائمة في العمل الروائي، لا يمكن الانفلات منه بتعبير عبد المالك مرتاض الذي يعتقد أنه: "يستحيل أن ينفلت كائن ما أو شيء ما أو فعل ما، أو تفكير ما أو حركة من تسلط الزمنية"[1] وبذلك يكون الزمن المادة المعنوية التي تشكل وتكون كل حياة وخبر وكل فعل وكل حركة، فتصبح مكونا من مكوناته الأساسية، لذا وجدت نظرات خاصة للزمن في كل الفلسفات ومنه الزمن الأدبي الذي يكوِّن بنية النص الأدبي، وهو زمن يصنعه الروائي مخالفا به الزمن الطبيعي "فهو ضروري في تصميم شخصيات العمل الأدبي وبناء هيكلها، وتشكيل مادتها وأحداثها"[2].

إن الزمن الروائي يستطيع التنقل بكل سهولة بين الماضي والمستقبل لأنه يهدم الحائط بين الحلم والواقع فيتجاوز كثافة الأرض الحقيقية طبقة طبقة ويبلغ مناطق نائية يصبح فيها العالم وهما وتزول الأشياء والأماكن، والأحقاب، من وجهه مفسحة المجال أمام مخيلته لإعادة خلقها كما يشاء"[3].

تكشف طريقة بناء الزمن في النص الروائي، عن تشكيل بنية النص، والتقنيات المستخدمة في البناء، وبالتالي يرتبط شكل النص الروائي، ارتباطا وثيقا بمعالجة عنصر الزمن، ومن ثم فإن تحكم المؤلف في الزمن الروائي معناه بلورة بنية النص، على اعتبار أن عجلة الزمن متغيرة وغير ثابتة في علاقتها بالموضوع الروائي.

على هـذا الأسـاس فـالزمن هـو موضـوع الروايـة، وشخصـية رئيسـية في "الروايـة المعاصـرة بفضـل اسـتعمال العـودة إلى الماضـي، وقطـع التسلسـل الـزمني، وبـاقي التقنيـات الزمنيـة الـتي كانت لها مكانة مرموقة في تكوين السرد وبناء معماره[4].

وقد اهتم الشـكلانيون الـروس بـالزمن في الأعمـال السـردية، علـى أنـه مظهـر مـن مظـاهر الاختيـار يتـيح إمكانيـة الانتقـال مـن الخطـاب إلى القصـة[5]، وقـد ميـزوا بـين زمـن القصـة والخطـاب في إطـار تقسـيمهم العمـل الروائـي إلى مـتن ومبنـى، لكـل ميزاتـه الخاصـة، فـالأول يتطلـب أن يكـون لـه زمـن ومنطـق ينظم الأحـداث الـتي يتضـمنها، أمـا الثـاني فـلا يأبـه لتلـك القرائن تبعا للنظام الذي ظهرت به في العمل الروائي[6].

تأسيسـا علـى ذلك قـدم تـودوروف (Tzevetan Todorov) تمييـزا بـين الـزمنين، زمـن القصـة وزمـن الخطـاب، فـزمن الخطـاب زمـن خطـي، بينمـا زمـن القصـة متعـدد، ذلـك أن العديـد مـن الأحداث في القصة يمكنها أن تجري في وقت واحـد"، لكـن في الخطـاب لا يمكنهـا أن تـأتي مرتبة واحدة بعد الأخرى، وذلك بسبب الانحرافات الزمنية المتعددة التي تمدنا بهـا العديـد مـن الخطابات على المستوى الزمني[7]. وينجم عن تمدد علاقة زمن القصـة بـزمن الخطـاب أشـكال متعددة[8]، وهـي: التسلسل، التضمين، التناوب.

زمن الخطاب السردي في رواية اعترافات أسكرام:

انطلاقـا مـن هـذه الرؤيـة، المشـار إليهـا سـابقا يمكننـا الحـديث عـن زمـن الخطـاب السـردي في روايـة" اعترافـات أسـكرام❖ للكاتـب عـز الـدين ميهـوبي، الـذي عـرف شـاعرا مـن خـلال أعمالـه الشـعرية الكـثيرة[9]، وقـد أبـى إلا أن يـدخل مغـامرة الكتابـة الروائيـة، انطلاقـا مـن هـذا الأثـر الجديـد، محـاولا الغـوص في تجـاويف الـذاكرة الكونيـة، مسـتلهما الكـثير مـن القـيم التاريخيـة والأسطورية والمحلية والتراثية، معتمدا في ذلك على تقنيات سـردية وأدوات أسـلوبية يـدخل بعضـها في التجريب وبعضها الآخر في صميم الوعي الإبداعي للشاعر الروائي الحريص على روح الإبداع.

إن روايـة عـز الـدين ميهـوبي ذات زمـن متنـوع يحفـل بالمتناقضـات والصـراعات بـين التخلـف والتقدم والتمدن والتقهقر، وبين الأسطورة والواقع، والشعوذة والعقل وبين الانطواء والانبساط وبـين السـلطة والمجتمعيـة، وهـذا مـا حفزنـي علـى اختيارهـا لإدراك هـذه العلاقـات الزمنيـة المحبوكة داخل الخطاب الروائي للكشف عن العلاقات الزمنية الدالة فيه انطلاقا من تحديد زمن القصة وزمن الخطاب.

1- **زمن القصة في رواية اعترافات أسكرام:**

هو الزمن الذي جاءت المادة الحكائية في أتونه، فكل قصة تتوفر على نقطة تنطلق منها وتتبعث من خلالها إلى الحياة، تمثل نقطة البداية ونقطة ثانية، تلفظ أنفاسها عند عتباتها وتمثل نقطة النهاية، وبين النقطتين تمتد مساحة تسجل عليها الحكاية وقائعها وأحداثها في زمن ما.

"سواء كان الزمن مسجلا أم غير مسجل كرونولوجيا أو تاريخيا[10]"، وبالتالي فالمقصود به هنا هو زمن حدوث وقائعها وزمن تشخص مادتها الحكائية على امتداد سنوات أو ساعات واقعية أو خيالية.

إن رواية اعترافات أسكرام" للكاتب عز الدين ميهوبي، تضم حدثا رئيسيا (**الاعترافات**) وأحداثا متشابكة وقائعها في أماكن مختلفة، وأزمنة متعددة. فزمن القصة هو ليلة رأس السنة (31 ديسمبر 2039) على الساعة (**التاسعة 21:03**) والحدث المحفز الذي تنهض عليه الرواية هو الإعلان عن مسابقة أكثر الاعترافات إثارة للاهتمام، فيقع الاختيار على **"شاعر كوبي" و"فنان تشكيلي إسباني" و"فلسطيني كان معتقلا في غوانتانامو" و"باحثة جغرافية من اليابان"** غير أن هذه الاعترافات تكون مسبوقة بالراوي الأصلي **"صالح النازا"** وهو رجل مطافئ يعثر على مخطوط لسائح فرنسي يدعى **"أنطوان مالو"**، يموت هذا الأخير اختناقا أثناء الحرق الذي يضرمه **"أدولف هوسمان"** في الفندق انتقاما من التوارق الذين قتلوا الأب **"شارل دي فوكو"**.

"... أيتها السيدات، أيها السادة، لن أفعل شيئا سوى الضغط على زر هذه الشاشة الإلكترونية لتختار أربعة منكم، يتداولون حسب الترتيب على هذا الكرسي، ويقدمون اعترافاتهم في حدود ستين دقيقة لكل واحد... أول من يعترف هو السيد إيناسيومغوال غارسيا من كوبا... اسم المعترف الثاني رافائيل رامون كابريرا من إسبانيا... المعترف الثالث السيد أمين أبو راشد المدعو الأفغاني... ثلاثة رجال وامرأة: إنها ساديكو من اليابان... وأعلمكم أنه لا يمكنكم معرفة الفائز إلا في حدود الساعة الخامسة صباحا وتصبحون على اعتراف جميل...[11]"

إن الحيز الزمني في الرواية هو الليل، الستار السري الذي يضفي على جو الاعترافات مسحة تعمق الخلوة في النفس، وقد اختار الكاتب الليل لتطول السهرة، وهذا يحيل إلى تقاليد موروثة في الحكي مثل "ألف ليلة وليلة"، "الإمتاع والمؤانسة"...

وقد اختار الكاتب المستقبل لسرد وقائع الرواية لأنه حيز زمني مفترض يعطي مجالا أوسع للخيال، عكس الحاضر والماضي لأن مجالاتهما محدودة، ومعروفة بالنسبة للقارئ.

2- **زمن الخطاب في رواية اعترافات أسكرام:**

وفيه يخضع زمن السرد للتسلسل المنطقي للوقائع، فلو افترضنا أن قصة معينة تضم مراحل أحداث متعاقبة منطقيا على النحو التالي: أ - ب – ج – د فإن سرد هذه الوقائع في رواية ما يمكن أن يأخذ الشكل الأتي:" د- أ- ج- ب.

وتعود مشكلة الزمن الروائي في رأي الدكتور صلاح فضل إلى الفرق بين زمن القصة وزمن الخطاب فبينما يسير زمن الخطاب في خط طولي في معظم الأحيان، نجد زمن القصة متعدد الأبعاد، إذ يمكن في زمن القصة أن تجري حوادث مختلفة في نفس الوقت مثلما يحدث في الواقع لكن ينبغي على الخطاب أن يضعها واحدة إثر أخرى بالضرورة، بهذه الطريقة يعرض شكلا معقدا وفق خط مستقيم مما يقتضي ضرورة كسر التتابع الطبيعي للأحداث مهما حاول المؤلف أن يكون أمينا في عرضها[(12)].

عن طريق هذا الانتقال الزمني يتجنب السرد تصوير الحياة كمجرد شيء يقع يتبعه شيء آخر فالتنقلات الزمنية إلى الوراء في القصة يمكنها أن تغير فهمنا لحدث يقع بعد ذلك في التسلسل الزمني للقصة[(12)]

في رواية" اعترافات أسكرام"، تتداخل الوقائع التاريخية مع المتخيلة فمن تاريخ الجزائر القديم وعادات التوارق وتقاليدهم إلى"شارل دي فوكو"، فحرب التحرير، والتجارب النووية في الصحراء، حتى، الأحداث الكبرى المعاصرة أحداث 11 سبتمبر وغزو العراق، إعدام "صدام حسين"، وحرب أفغانستان وما استتبع ذلك من آثار العولمة، ولكنها جميعا لا ترد مباشرة، إذ يحضر فعل التخييل لينتشلها من التقريرية، كالحيز المكاني المتخيل والمسابقة، والنيزك المرتقب، والتواريخ الافتراضية (2018- 2020- 2011- 2013- 2021- 2023- 2017- 2012- 2030- 2039- 2040). وهي تواريخ استباقية، فقد منح الكاتب نفسه الحرية في تخييل بعض الوقائع التي سيشهدها العالم مثل وقوع حرب نووية بين الهند وباكستان في عهد الابن البكر وانقلاب البيض على السود في جنوب إفريقيا، ومنح "أوباما" جائزة نوبل للسلام وتعرضه لمحاولة اغتيال، وتؤدي هذه التواريخ:

- وظيفة التنبؤ بالنسبة للقارئ قبل حلول هذه المواعيد، وأما ما بعد 2040 فإن الإيهام بصحة وقوع الأحداث يبقى حاضرا.

في الفصل الأول من الرواية والمعنون بـ (تين أمود) يرتسم الإطار العام ويتأثث الفضاء الروائي داخل فندق (أسكرام بالاس) ليلة رأس السنة فنتعرف على شخصيات العمل الروائي عن طريق الراوي "صالح النازا".

"... سألني (محمد أهتيفال التارقي) الذي احترف الإطفاء عرضا، بعد أن تعذر عليه الحصول على وظيفة في الطيران: أمازلت تفكر في زهرة التيندي؟

- ابتسمت لأنني كنت أعرف أنه سيذكر اسم "تين أمود" للمرة الألف، فهو يعرف قصتي معها، فأنا لم أكشف سر علاقتي بهذه الممرضة أقرب الناس إلي لكن أهتيفال كان يعرف كل شيء... حكايتي مع تين أمود تعود إلى صيف 2037..."[14].

تشكل هذه البداية زمن الحاضر (2039)، الذي سرعان ما يعود إلى الماضي (2037)، وذلك ليسرد (صالح الناز) الراوي الأصلي حكايته مع الممرضة (تين أمود) بتفاصيلها المؤلمة.

بعد تتبع قصة تين أمود يعود السارد إلى الحاضر، أين نشب حريق في فندق "أسكرام بالاس" فجر يوم (01 يناير 2040).

"... لم أنتبه إلى أن هاتفي كان يرن، والساعة تشير إلى الخامسة وثلاث وخمسين دقيقة فجرا، منصور على الخط: جهز نفسك: أمر طارئ في أسكرام..."[15]، ينتقل السارد بعدها إلى الفندق، وهناك يعثر على مخطوط لسائح فرنسي يدعى (أنطوان مالو) **"... رحت أتنقل بين الطاولات، وفي آخر القاعة أبصرت شبح رجل ملقى على الأرض، فأسرعت نحوه... كان أنيقا جدا، يفوق السبعين، ويضع نظارات ذهبية الإطار المعدني، وأذكر أن ربطة عنقه مطرزة بثلاثة أحرف لاتينية هي C.D.F... انتبهت إلى أن الرجل كان يدون شيئا في دفتر كبير عليه صليب مذهب سقط إلى جانبه... أخذت الدفتر..."[16]** ومن خلال هذا المخطوط (الدفتر الكبير) يعود بنا السارد إلى تاريخ أسرة (أنطوان مالو)، حين التحق والده (جان بيار) بصفوف المستعمرين كمحارب في عين الزانة عام (1959) يقول الراوي "... **تعرفت على جان بيار في شتاء 1959 حين التحق بنا في عين الزانة..."[17]**، ويموت هناك، يحاول ابنه أنطوان أن يعثر على قبره فيسافر إلى الجزائر مع زوجته وهناك يلتقي بسائق الطاكسي (مخلوف) الذي يعود بنا إلى حرب التحرير، أين حكم على والده بالإعدام فنقل مع آخرين إلى الصحراء لنجرب عليهم القنبلة الذرية"... **إن أبي من أولئك الذين تعرضوا للإشعاع النووي بـ إن إيكير في الصحراء قبل 12 سنة... وكان حينها محكوما عليه بالإعدام في سجن بربوس... كثير من الناس ينادونه اليوم محمد التارقي، حيث عاش وقائع التفجيرات النووية في أفريل 1961..."[18]**

بعد ذلك نعود إلى حاضر الرواية في الفصل الثالث (الشاعر والجدران) ليلة إقامة المسابقة، يبدأ السارد قوله: "**... راح الكوبي يبتلع سيجارة، أمام أنظارنا، ثم وضعها جانبا، وراح ينظر إلى من في القاعة: لا تنظروا إلي هكذا كما أنني هارب من أحد سجون كاسترو... فقد مضى على ذلك اليوم ثلاثة وعشرون عاما وشهران وتسعة أيام...**[19]"

هكذا فقد رجع الراوي إلى عام (2016) أين سجن بتهمة معاداة الثورة وفي الفصل الرابع (الفجيعة على أستار الكعبة)، يعود إلى حاضر الرواية (2039) والساعة تشير إلى (23:48)، حين نودي على رفائيل رامون كابريرا ليقر باعترافه، فيرتد إلى سنة 2020، ليحكي قصة مقتل عشيقته في تفجيرات مدريد، وكيف قرر الانتقام لمقتلها بأن يهدم الكعبة"**... لست بحاجة إلى الإقرار بذنب اقترفته قبل تسعة عشر عاما أو ما يشابه الذنب إن شئتم بعد أن تسمعوا اعترافي...**[20]"، وبعد مرور ثلاث ساعات وثلاث وعشرين دقيقة على اعتراف "رامون" نودي على "محمد أمين" ليستثير الماضي مرة أخرى، ويعود إلى سنة (1967)، أين التحق بصفوف القاعدة في أفغانستان وتعرض لمكيدة من طرف أحد عملاء أمريكا، ليجد نفسه في (غوانتانمو)"**... إن في صمتكم ما يدفعني إلى أن أحدثكم طويلا، وعمري اليوم اثنان وسبعون عاما، سأوزعها أمامكم...**[21]"

مع آخر اعتراف، يعود السارد إلى حاضر الرواية، ليؤطر النهاية والساعة تشير إلى (03:40)

"**... صعدتساديكو إلى كرسي الاعتراف بهدوء...**[22]"

لتحكي قصة أستاذها الذي عشق الصحراء وبحث عن الفقارات رغم خزانة اللعنة.

سبق أن أشرنا إلى الإيهام الذي تمارسه هذه الرواية على القارئ، فزمن هذه الاعترافات لا يلبث أن يصير ماضيا بالنسبة إلى الحاضر الروائي، وبالتحديد في الفصل السابع (آخر ما قاله صالح النازا) في يوم 07 يناير 2040، لذلك نجد تداخلا بين الزمنين: الزمن الماضي والزمن الحاضر على هذا الشكل:

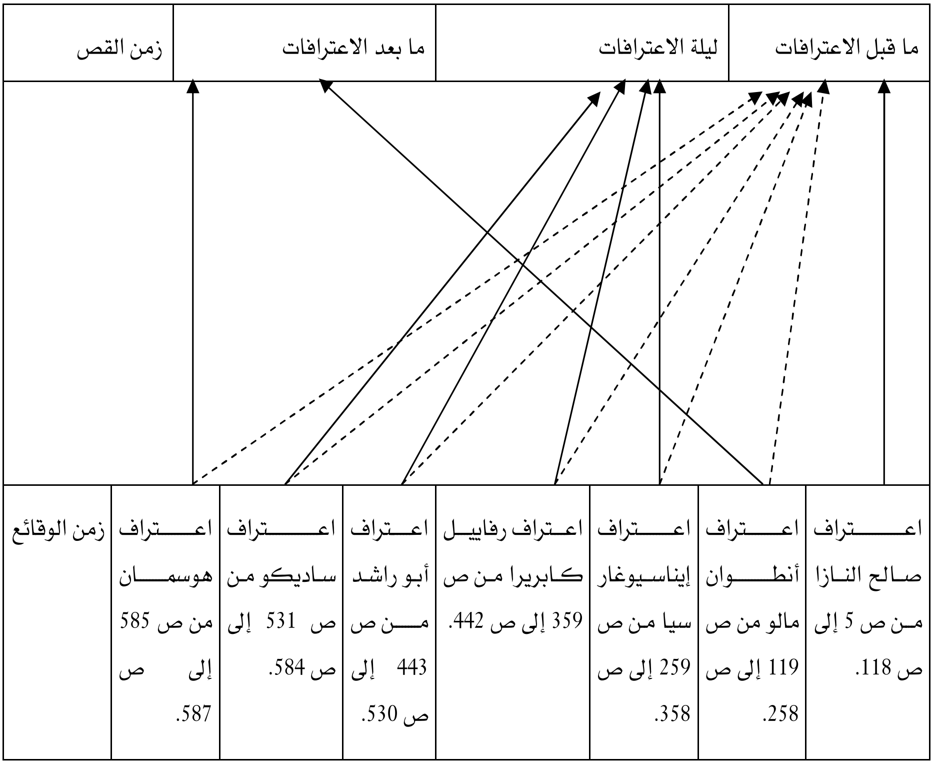

(تمثل الخطوط المتقطعة زمن الماضي والخطوط المستقيمة زمن الحاضر).

3- المفارقات الزمنية في رواية اعترافات أسكرام:

إنّ ترتيب الوقائع في الحكاية يختلف أحيانا عن ترتيبها زمنيا في الخطاب السردي، وحين لا يتطابق نظام السرد مع نظام الحكاية فإن الراوي يولد مفارقات زمنية ويرى (جيرار جينات) أن المفارقة الزمنية تعني في قوله "... دراسة الترتيب الزمني لحكاية ما، من خلال مقارنة نظام ترتيب الأحداث أو المقاطع الزمنية نفسها في القصة وذلك لأن نظام القصة هذا يشير إلى الحكي صراحة أو يمكن الاستدلال عليه من هذه القرينة غير المباشرة أو تلك، ومن البديهي أن إعادة التشكيل هذه ليست ممكنة دائما وأنها تصير عديمة الجدوى في حالة بعض الأعمال الأدبية[23].

إن المفارقات الزمنية ما هي إلا الانحرافات التي يقوم بها الراوي حين يقطع زمن السرد لتجسيد رؤية فكرية وجمالية، وفي هذا يقول تودوروف: "فزمنية الخطاب أحادية البعد وزمنية

التخييل متعددة واستحالة التوازي تؤدي إلى الخلط الزمني الذي نميز فيه بداهة بين نوعين رئيسيين: الاسترجاعات أو العودة إلى الوراء أو الاستقبالات أو الاستباقات..."[24]

أ- الاسترجاعات في رواية اعترافات أسكرام: يعد الاسترجاع من أكثر التقنيات الزمنية السردية حضورا وتجليا في النص الروائي، فهو ذاكرة النص، ومن خلاله يتحايل الراوي على تسلسل الزمن السردي، إذ ينقطع زمن السرد الحاضر ويستدعي الماضي بجمع مراحله. ويوظفه في الحاضر السردي فيصبح جزءا لا يتجزأ من نسيجه. وللاسترجاع وظائف بنائية وجمالية عدة، فهو قد يتناول شخصية ما يريد الراوي إضاءة تاريخها أو شخصية غابت عن الأنظار ليستعاد ماضيها[25]، أو الإشارة إلى أحداث سبق للسرد أن تركها جانبا واتخاذ الاسترجاع وسيلة لتدارك الموقف وسد الفراغ الذي حصل في القصة أو العودة إلى أحداث سبق إثارتها برسم التكرار الذي يفيد التذكر.[26]

وينقسم الاسترجاع إلى قسمين:

● **الاسترجاع الخارجي في رواية اعترافات أسكرام:** ونعني به الوقائع الماضية التي حدثت قبل بدء الحاضر السردي، حيث يستدعيها الراوي أثناء السرد، وتعد زمنيا خارج الحقل الزمني للأحداث السردية الحاضرة في الرواية، ويرتبط الاسترجاع الخارجي بعلاقة عكسية مع الزمن السردي في الرواية الحديثة، نتيجة تكثيف الزمن السردي، وفي هذا تقول سيزا قاسم: "... فكلما ضاق الزمن الروائي شغل الاسترجاع الخارجي حيزا أكبر..."[27]

ومن بين الاسترجاعات الخارجية في رواية "اعترافات أسكرام" نجد استرجاع "أهتيغال" لطفولته الممزقة، نتيجة السلوك المنحرف للأم التي كانت تتعاطى المخدرات والسهرات الحمراء حتى الفجر **"... كان يستغرق في وصف طفولته الجريحة، مع أخته التوأم سالمة، ويبكي طويلا عندما يكلمني عن علاقته بأمه الساقطة، التي طردته وأخته من البيت بعد أن اكتشفا علاقتها بموظف في بنك فرنسي..."[28]**

ومنه نلاحظ تركيز السارد على الاسترجاع الخارجي الممتد إلى مرحلة الطفولة باعتبارها مرحلة من أهم المراحل الزمنية في تكوين الشخصية الإنسانية وتشكل رؤيتها وفكرها ومشاعرها[29].

ويقدم لنا السارد عبر الاسترجاع الخارجي طفولة (حسين الدزيري) المصاب بالربو فيقول: **"... نسيت كل شيء ثم استحضرت كل الحكايات الصغيرة وأحلاها يوم ختمت ربع القرآن**

الكريم، ولم أعثر على الصلصال الذي أمحو به اللوحة... فعاقبني بالفلقة والضرب على الرجلين...[30]"

ولم يقتصر السارد على ذكر مرحلة الطفولة فقط، بل ارتد إلى مرحلة المراهقة والشباب (لإليسيو)"... كان يحضر مع صديقه أولفر أفلام جيمس بوند 007، ومتابعة بطولات ألعاب القوى والملاكمة[31]" وهكذا فقد منح الاسترجاع الخارجي للشخصيات الحكائية فرصة الحضور في زمن السرد مثل (أوليفر) لما له من أهمية في بناء شخصية (إليسيو).

●**الاسترجاع الداخلي في رواية اعترافات أسكرام:** ويعني العودة إلى نقطة سابقة لا تتجاوز نقطة الصفر، أو نقطة الانطلاق السردي، بحيث تظل سعة الاسترجاع كلها داخل سعة الحكاية الأولى[32].

ويختص هذا النوع باستعادة أحداث ماضية، ولكنها لاحقة بزمن بدء الحاضر السردي، وتقع في محيطه، ونتيجة لتزامن الأحداث يلجأ الراوي إلى التغطية المتناوبة، حيث يترك شخصية ويصاحب أخرى ليغطي حركتها وأحداثها.

ويوظف السارد الاسترجاع الداخلي في تذكر "صالح النازا" لـ "تين أمود"، **"... أشعلت سيجارة ثم أتبعتها بأخرى. ومن دون أن أتردد كثيرا، سحبت من جيبي رسالة تين أمود، كادت الكلمات تمحى بسبب رطوبة الجيب، رحت أقرأها بصمت وانقباض شديد...[33]"**، لقد كان هذا الاستحضار سببا في تذكر (صالح) لرسالة (تين) التي لم يقرأها إلا بعد موتها.

ويشغل الاسترجاع الداخلي حيزا كبيرا في الخطاب السردي مقارنة بالاسترجاع الخارجي، ومن أمثلة هذا النوع قصة جد (أنطوان) الذي كان عميلا للألمان، وأبقى ذلك سرا يحتفظ به، ولم ينكشف هذا الأمر إلا بعد وفاته أثناء قراءة (أنطوان) لوصية جده التي اعترف فيها هذا الأخير بكل شيء: **"... لن أرهقك يا أنطوان بتاريخ جدك لكنني، لن أرحل إلى الأبد، دون أن أبوح لك بسر، لم تصل إليه آذان العفاريت وعيونهم في الشرق وفي الغرب... جدك كان عميلا للألمان في الحرب العالمية الثانية...[34]"**

ويسترجع السارد أيضا حياة والد (أنطوان) في الجزائر من خلال الرسائل التي كان يرسلها إلى زوجته، والقصص التي حكاها له (البشير) عن طريقة موت والده في عين الزانة **"... عندما شرعت الجرافة في إزالة الركام الذي يغطي المخبأ القريب من مبنى القيادة، رأينا عشرات الجثث المتراكمة، وما إن شرع في سحبها ونقلها إلى الساحة، حتى لمحت جان بيار، وقد تشوه بفعل شظايا القنابل التي تم تفجيرها داخل المخبإ...[35]"**.

ونلاحظ أن الاسترجاعات في الرواية قد ساهمت في إنارة الماضي الخفي للشخصيات، كما عملت على تحطيم خطية الزمن مثل استرجاع السارد لسبب نشوب الحريق في الفندق وهوية الفاعل "... **أعتقد أن الصحف لم تخطئ في تخميناتها وكلام الشارع ليس سحابا عابرا، فالفاعل لم يكن سوى هوسمان المجذوب... وفي اليوم السابع سربت جهات ما ورقة بخط يد هوسمان عثر عليها في جيب سترته يقول فيها: يا نبي الصحراء شارل دي فوكو، كان عليّ أن أنتقم لك، لتنعم روحك بالراحة الأبدية.**

قليل من النار يكفي ليكون هذا الفندق رمادا يغطي أرضك الطاهرة فاقبل القربان الذي أهدتك إياه أمي..."[36]

ب- **الاستباق في رواية اعترافات أسكرام:** الاستباق أو الاستشراف هو الطرف الثاني من تقنيتي المفارقة الزمنية، وهو يعني في مفهومه الفني "تقديم اللاحقة والمتحققة حتما، في امتداد بنية السرد الروائي، على العكس من التوقع الذي قد يتحقق"[37]

إذ يقوم الراوي باستباق الحدث الرئيسي في السرد بأحداث أولية تمهد للآتي وتومئ للقارئ بالتنبؤ واستشراف ما يمكن حدوثه أو يشير الراوي بإشارة زمنية أولية تعلن صراحة عن حدث ما، سوف يقع في السرد.

فالاستباق هو حالة توقع وانتظار يعيشها القارئ أثناء قراءة النص، بما يتوفر لها من إحداث إشارات أولية توحي بالآتي، ولا تكتمل الرؤية إلا بعد الانتهاء من القراءة، إذ يستطيع القارئ تحديد الاستباقات النصية والحكم بتحققها أو عدمها.

وتعد مشاركة القارئ في النص من أبرز وظائف الاستباق، إذ يوجه هذا الأخير انتباها لمتابعة تطور الشخصية والحدث من خلال الاستشرافات كما يساهم في بناء النص من خلال التأويلات والإجابة عن التساؤلات التي يطرحها، ثم ماذا بعد؟ ولماذا حدث؟

وينقسم الاستباق إلى قسمين:

أ- **الاستباق كتمهيد في رواية اعترافات أسكرام:** إن الاستباق التمهيدي يتمثل في أحداث أو إشارات أو إيحاءات أولية يكشف عنها الراوي ليمهد لحدث سيأتي لاحقا، وبالتالي يعد الحدث أو الإشارة الأولية بمثابة استباق تمهيدي للحدث الآتي في السرد، وتعد الرواية بضمير المتكلم هي الأنسب في الاستباقات التمهيدية كونها تتيح للراوي الفرصة بالتلميح إلى الآتي وهو يعلم ما وقع قبل وبعد.

والاستباق التمهيدي يشكله الراوي بصورة تدريجية، حيث يبدأ بحدث استباقي تمهيدي ثم يتطور ويكبر لينتهي بحدث رئيسي لاحق.

وقد يتخذ هذا الاستباق صيغة تطلعات مجردة تقوم بها الشخصية لمستقبلها الخاص فتكون المناسبة سانحة لإطلاق العنان للخيال ومعانقة المجهول واستشراف آفاقه[38].

وفي "اعترافات أسكرام" يعد عنوان الرواية استباقا تمهيديا والذي يتحقق وقوعه داخلها، والمتمعن في النص الروائي يجد الكثير من الإشارات الدالة على أن زمن الاعترافات سيكون في الليل ومن ذلك النموذج السردي التالي: "**... سمعت جدي (سالم الفياغرا) يقول: لم أفهم لماذا يشبه الناس الحقيقة بالشمس بينما لا تقوى أعينهم على النظر إليها. قد تكون الشمس كذبة أيضا، فهي تفضحنا في النهار وتفضحها في الليل...**[39]"

وفي الرواية نجد استباقا آخر فيه الإشارة على أن المعترفين سيكونون كبارا في السن وذلك في قول السارد: "**... يقولون إن الاعترافات ثقافة دينية، يشرع أصحابها في الجهر بأفعالهم المشينة آخر العمر لهذا كلما حلت كارثة بفعل بشري متعمد انتظر الناس ثلاثين أو أربعين عاما ليعرفوا حقيقة ما حدث، ويعرفوا الفاعل ونائبه...**[40]"

وقد أشار السارد من خلال تقنية الاستباق التمهيدي إلى إمكانية نشوب حريق في فندق "أسكرام بالاس "في بداية الرواية عند قوله: "**... زرت أسكرام بالاس مرتين، الأولى عندما تفقدنا مدى مطابقته للمعايير الفنية التي تستجيب لحالات الطوارئ والإسعاف والثانية عندما دعانا مدير الفندق إلى حضور الذكرى الأولى لبناء الفندق...**[41]"

كما ارتسمت ملامح المسؤول عن الحريق، كاستباق تمهيدي من خلال المقطع السردي التالي:"**... وقبل أن أستقل سيارة إسعاف المطافئ لمرافقة ستة من مصابي الفندق، سألني صحافي:**

-هل رأيت السيد هوسمان؟

- لا لم أره.

- يقولون إنه اختفى بعد اندلاع الحرق.

-لا أعرف، أنا رجل مطافئ، ولا يمكنني أن أجيب عن أسئلة خارج الماء والحريق.

-في السيارة تساءلت مثل الصحافي:

–صحيح، أين هو السيد هوسمان؟ هل يتحمل مسؤولية ما وقع؟...[42]"

وإذا ذهبنا إلى استباق زمني آخر في الرواية "اعترافات أسكرام"، ستظهر لنا إشارات استعملها السارد كأداة للتمهيد للاعترافات:

مثل استباق تمهيدي لاعتراف "أبو راشد الأفغاني" يظهر من خلال قول الراوي: "**... ويعزز الكاتب حججهم بصور نادرة لأسامة بن لادن، وهو يجالس ضباطا في السي– آي– آي إلى جانب عدد من الوثائق والصور والخرائط... وتم اكتشاف أجهزة اتصال لا سلكية في مخابئ تورابورا في أفغانستان...[43]"**

واستباق لاعتراف الإسباني "رامون كابريرا"، يظهر في قول السارد: "**... وفي العام نفسه طُرح في أسواق العالم كتاب بعنوان "أبرهة يثأر لنيويورك" للكاتب بوب كولونيس حفيد إحدى ضحايا 11 سبتمبر، ويضع فيه عددا من السيناريوهات لتفجير الكعبة، انتقاما من المسلمين الذين يسميهم الجعالين النتنة ويدعو إلى إبادتهم باستخدام أكثر الأسلحة فتكا...[44]"**

واستباق تمهيدي لاعتراف ساديكو، والذي ظهر من خلال تعريج السارد على أحداث هيروشيما في قوله:"**... وتعادل قوة انفجار النيزك أيضا مليوني مرة قوة قنبلة هيروشيما قبل 85 عاما، وبضغط انفجاري يصل إلى ثلاثمائة وعشرين ألف ميغاطن...[45]"**

وبوجه عام فإن الاستباقات تدخل في صميم التحريف الزمني الذي يعمد إليه الكاتب لتحقيق مشاركة القارئ وتحفيزه على المساهمة في بناء السرد وإنتاج المتعة الروائية[46]، بما يعني أن الكاتب، وهو يستعمل هذا النمط من الاستباقات، يبقى حرا إلى حد ما في الوفاء أو عدم الوفاء، لما هيئ له الشيء الذي يؤدي في الحالة الأخيرة إلى ما يسميه (جينيت) بالتمهيدات الخادعة[47]"

ب- **الاستباق كإعلان في رواية اعترافات أسكرام:** وهو يعلن صراحة عن سلسلة الأحداث التي سيشهدها السرد في وقت لاحق [48] وإذا كان الاستباق التمهيدي يمهد للحدث اللاحق بطريقة ضمنية، فإن الاستباق الإعلاني يخبر صراحة في أحداث أو إشارات أو إيحاءات أولية عما سيأتي في سرد فيما بعد بصورة تفصيلية.

فالاستباق الإعلاني حتمي الحدوث لاحقا، إذ يعلن الراوي الحدث النهائي بعد إتمامه وانتهائه ويضع القارئ وجها لوجه معه ليبدأ التساؤل: ماذا حدث؟ وكيف حدث؟

وللإجابة عن تساؤلات القارئ ومشاركته في النص، يقوم الراوي بعد مفارقة الاستباق وإعلان الحدث باستخدام تقنية الاسترجاع للكشف عن حقيقة الحدث المعلن، وتقديم الإجابات، وكثيرا ما تأتي المفارقة الاسترجاعية بعد استباق إعلاني.

ومن نماذج الاستباق الإعلاني في الراوية "اعترافات أسكرام" نجد إعلان "أدولف هوسمان" صاحب فندق "أسكرام بالاس" عن إقامة مسابقة أكثر الاعترافات إثارة للاهتمام في قول السارد: **"... وقف السيد هوسمان وأعلن في الحاضرين أنه قرر تخصيص مكافأة بمليون يورو لمن يقدم أفضل شهادة ذاتية واعتراف في آخر العام..."(49)**

وشبيه بهذا الإعلان ما نجده من خلال تصريح هوسمان علانية أنه سينتقم للأب "شارل دي فوكو **"... في هذه اللحظة مرّ بنا هوسمان وهو يتصبب عرقا ويحمل على ظهره صليبا كبيرا من الخشب ويطوف حول الدير ويقول: إنها النبوءة... أمي هل تسمعين صوتي في فرانكفورت... أنا في باحة النبي... سأبني ما يخلده... وسأنتقم من قاتليه..."(50)**

استباق إعلاني آخر من خلال إيراد ذهاب "أنطوان" إلى الجزائر للبحث عن قبر والده، عملا بوصية جده التي قال فيها: **"... ولا أوصيك بشيء ذي قيمة سوى أن تبحث عن قبر أبيك، ولا أدعوك إلى أن تفعل شيئا أعظم مما فعله سوى أن تتعقب آثار الرجل العظيم..."(51)**

وعلى المستوى التطبيقي، وحين حاولنا تتبع هذا النموذج من الاستباقات لاحظنا ندرتها النسبية مقارنة بالنوع الأول (الاستباق التمهيدي) وهذا ناتج عن قلة احتفاء الكتاب باستخدام الاستباق كإعلان وميلهم الواضح، إلى توظيفه كتمهيد للأحداث المنتظرة، ولعل هذا يدل في جانب منه، على وعي هؤلاء الكتاب بأهمية الطرق الفنية، الحديثة التي تعول على مساهمة القارئ، وتحترم ذكاءه الخاص، وتنظر بالتالي إلى الإعلانات كمظهر من مظاهر تدخل المؤلف(intrusion – de l'auteur)الذي ترى فيه أسلوبا معيبا يحمل آثار السرد الشفوي، ويعيد إنتاجها في الرواية المعاصرة.

وبعد جولتنا البسيطة في رحاب المفارقات الزمنية التي تعددت وتضاربت وتنازعت أولويات الحضور في رواية "اعترافات أسكرام" بين ذاكرة معبأة بزخم هائل من الأحداث، وتوقع كان يتحين الفرصة لإخراج الأحداث من عتمة الذاكرة إلى شرفة الترقب وفضاءات الاستباق.

هذا التنازع على مساحات الحضور أدى إلى بلورة الأحداث في زمنها بمقتضى أن كل مفارقة كانت تشتغل داخل الرواية لهدف واحد هو تقديم المحكي في قالب متماسك ينأى عن الاضطراب

والاختلال في ظل زمن يتماهى في نسيجه مع الزمن الإنساني الذي ينبني في الخارج "**على حاستي الذاكرة والتوقع... داخل شبكة نسيجها الماضي والحاضر والمستقبل**(52)" مما أدى إلى خلخلة النظام الزمني للأحداث في الرواية، من خلال الابتعاد عن التسلسل الخطي للحكاية.

ولعل هذا التأرجح القائم بين عودة تسرقنا نحو دوامة الماضي، واستباقات تتوه بنا في فضاءات الترقب هو ما جعل من أحداث الرواية تخرج بنا عن نسق التكامل الخطي، الذي كان سيخضعنا إلى توالٍ زمني، وتتابع حتمي.

وبالتالي لا نجدها تولي أهمية لذلك الترتيب الذي قامت بكسره من خلال توظيفها للمفارقات الزمنية، الاسترجاعية، والاستباقية على حد سواء، حتى وإن سجلنا وطأة النوع الأول وطغيانه على المساحة النصية، التي يشغلها، إذا ما قورن بالنوع الثاني الذي كان باعثا على انفتاح نوافذ الذاكرة، وبالتالي فهما يمثلان عصب المفارقة الزمنية التي ارتكز عليها الكاتب عز الدين ميهوبي في صفحة شكله الروائي، وهذا ما جعله وعلى الرغم من سيرورة الأحداث المتقدمة بنا نحو الأمام نخال الرواية عائدة بنا إلى الوراء.

الهوامش والإحالات:

(1)عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، دراسة سيميائية تفكيكية، ديوان المطبوعات الجامعية 1992 ص 121.

(2)سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 4 ص 10.

(3) سمير الحاج شاهين، لحظة الأبدية، المؤسسة العربية للدارسات، بيروت 1980، ص11.

(4)ألان روب غرييه، نحو رواية جديدة، ترجمة: مصطفى إبراهيم المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1993 ص52.

(5) تزيفتان تودوروف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب ط1 1987 ص 45.

(6) الشكلانيون الروس، نظرية المنهج الشكلي، ترجمة إبراهيم الخطيب مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط، ط1، 1982، 189.

(7) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق ص 73.

[8] جيرار جينات، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة محمد المعتصم وآخرون، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ط2 1997 ص46.

❖رواية اعترافات أسكرام، عز الدين ميهوبي، أول عمل روائي للمبدع الشاعر، تتكون من 587 صفحة من الحجم المتوسط، صدرت عن دار منشورات البيت للثقافة والفنون، الجزائر، 2008.

[9]من أعماله الشعرية: في البدء كان أوراس 1985، الرباعيات 1987، اللعنة والغفران 1997، النخلة والمجداف 1997، ملصقات 1997، عولمة الحب وعولمة النار 2002، قرابين لميلاد الفجر 2003، طاسيليا 2007، منافي الروح 2007، أسفر الملائكة 2008، الرباعيات 2011.

[10] سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق ص 89.

[11] عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام، مصدر سابق ص 107- 108.

[12] صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، 1980، ص 421.

[13] دفيد لودج، الفن الروائي، ترجمة ماهر البطوطي المشروع القومي للترجمة المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ط1 2002 ص86.

[14] عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام، مصدر سابق ص 35 - 36.

[15] نفسه ص110.

[16] نفسه ص113- 114.

[17] نفسه ص 183.

[18] نفسه ص 207.

[19] نفسه ص 260.

[20] نفسه ص 359.

[21] نفسه ص 444

[22] نفسه ص 535.

(23) جيرار جينات، خطاب الحكاية، مرجع سابق ص 47.

(24) تزيفتان تودوروف، الشعرية، مرجع سابق ص 48.

(25) جيرار جينات، خطاب الحكاية، مرجع سابق ص 61.

(26) حسن البحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ط2 2009 ص122.

(27) سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة، القاهرة 2004 ص 59.

(28) عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام، مصدر سابق 42.

(29) مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2004 ص 197.

(30) عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام، ص 220.

(31) نفسه ص269.

(32) جيرار جينات، خطاب الحكاية، مرجع سابق ص 60.

(33) عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام، مصدر سابق ص 101.

(34) نفسه ص 163.

(35) نفسه ص 199.

(36) نفسه ص 586.

(37) إبراهيم نمرموسي، جماليات التشكيل الزماني والمكاني، مجلة فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج2، ع2، القاهرة 1993 ص 312.

(38) حسن البحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق ص 133.

(39) اعترافات أسكرام ص 05.

(40) نفسه ص 10.

(41) نفسه ص 33.

(42) نفسه ص114- 115.

(43) نفسه ص 08.

(44) نفسه ص 10.

(45) نفسه ص 17.

(46) يمكن للقارئ مثلا نتيجة تراكم عاداته القرائية، أن يتعرف على الاستباق كتمهيد بمجرد ظهوره في النص.

(47) التمهيدات الخادعة (fausses – annonces) وهي تلك الاستباقات التي يلجأ إليها الكاتب كلما أراد تضليل القارئ أو رغب في تمويه خطته السردية.

(48) حسن البحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق ص 137

(49) اعترافات أسكرام ص 34.

(50) نفسه ص 256.

(51) نفسه ص 168.

(52) يوتريوري، تاريخ الزمان، فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة: فؤاد كامل، سلسلة عالم المعرفة، وزارة الثقافة والإعلام، الكويت ع 159، 1992، ص14.